

تنشئة الطفل عند قدماء المصريين

دكتورة نبيلة محمد عبد الحليم

كلية التربية - جامعة الاسكندرية

اتجهت الباحثة في معالجتها لهذا الموضوع إلى التعرض للمراحل الأولى لتكوين الطفل والحرص على الإنجاب . ثم تابعت ذلك بدراسة مراحل الحمل والولادة ، والرضاعة ، ودور الأم الرئيسي فيها . وأخيراً ، ألفت بعض الضوء التاريخي على موضوع تنمية الطفل وثقافته وتوجيهه من المصادر المصرية القديمة .

والواقع أن الطفولة هي أولى مراحل الحياة وأحقها بالعناية سواء على مستوى الأسرة أو المجتمع . وتعتبر دراسة تنشئة الطفل والاهتمام به من أهم المقاييس التي يقاس بها تطور المجتمع وتقدمه ، حيث أن الاهتمام بالطفولة هو في حد ذاته اهتمام بمستقبل المجتمع .

ولا شك أن العناية بالطفولة جزء من الطبيعة البشرية وهي تختلف باختلاف المجتمعات من حيث درجة تطورها الاقتصادي والحضاري والاجتماعي . إن تاريخ البحث في الطفولة للتعرف على حقائقها والوقوف على مظاهر الرعاية المختلفة يعتبر من الأهمية بمكان حيث يسهم في التعرف على العوامل والظروف المختلفة التي أحاطت بتنشئة الطفل بطريقة سليمة .

ولقد بدأ الإنسان المصري القديم يفكر في أطوار نموه وبداية تكوينه

حينما صور حياة الجنين في مراحلها المبكرة حيث نقرأ في نشيد(١) أختناتون

«... أنت خالق الجنين في الأم ،

أنت خالق نطفة الإنسان ،

أنت واهب الحياة للجنين في رحم أمه ،

وماطفه حتى لا يتكدر فيبكى ،

كيف لا وأنت المربي في الرحم ،

الذى يعطى نفس الحياة لكل مخلوقاته !

• • •

أنت فاتح فيه

ومعطيه حاجاته ... »

ولتد شغف المصرى القديم بحب الأطفال مما دفعه إلى الحرص على الإنجاب بل والتبكير بالزواج حتى يتمكن من تربية أطفاله قبل أن تتقدم به السن. ويمكن ملاحظة ذلك الاتجاه مما جاء في نصائح آنى(٢) Ani «... ما أسعد الشخص الذى يكثر أهله ويحييه الناس باحترام بسبب أولاده...». ونرى مثل ذلك القول في نصائح بتاح حوتب(٣) Ptah-Hotep «...إذا كنت رجلا...

Wilson, J.A., Egyptian Hymns and Prayers, „The Hymn to the (١) Aton”, (in) pritchard, J.B., Ancient Near Eastern Texts, Relating to the Old Testament, Princeton, 1969, p. 370.

وجيمس هنرى برستد ، تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى ، ترجمة حسن كمال وراجعه محمد حسين الغمراوى ، القاهرة ١٩٢٩ ، ص ص ٢٤٥ - ٢٤٩ .

Wilson, J.A., Proverbs and Precepts, „The Instruction of Ani”, (in)(٢) ANET, pp. 420; Lichtheim, M., Ancient Egyptian Literature, Vol. 11, Berkeley, 1976, p. 141.

Wilson, J.A., Proverbs and Precepts, „The Instruction of the (٣) vizier Ptah-Hotep”, — (in) ANET, p. 413.

تخليكن لك ولد فذلك شيء يسر الإله ..» . ونستطيع القول بأن ذلك ربما يعود إلى طبيعة المجتمع المصرى القديم كمجتمع زراعى يتطلب المزيد من الأيدى العاملة . وعلى ذلك فإن كثرة إنجاب الأولاد كان فى الواقع مصدر رزق للفلاح المصرى القديم . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الأولاد فى تلك المرحلة لم يكونوا عبئاً على ذويهم طالما هم فى سن الطفولة . فقد كانوا يسرون حفاة الأقدام ، وغالباً ما يخرجون متجردين تماماً من الثياب (١) كما تشير إلى ذلك نقوش الدولة القديمة . ولو أن هذا الأمر يحتمل الشك (٢) علماً بأن النقوش المصرية القديمة أظهرت ملابس أطفال الطبقة الراقية منذ عصر الدولة الوسطى . ومهما كان الأمر فإن هؤلاء الأطفال لم يكلفوا آباءهم سوى القليل من النفقات . وعلى ذلك فربما كانت تلك الأسباب الاقتصادية البحتة من العوامل التى أدت إلى الإكثار من النسل .

ومن أجل مزيد من الرعاية للطفل ، حرص المصريون القدماء على العناية بالأُم خلال شهور الحمل . ولقد ظن المصريون فى ذلك الوقت المبكر إلى أن غذاء الجنين وتنفسه إنما يصله عن طريق الأُم (٣) . وليس أدل على حرص المصريين على رعاية الحامل وتأمينها مما قد يتعرض له من أخطار أثناء مرحلة الحمل من تخصيصهم لإلهة خاصة تقوم بحماية الحوامل اسمها تاوُرت (٤) كما كانت العادة المتبعة أن تقوم المرأة خلال شهور حملها بلبس التمام لتبعد عنها روح الشر . ولعل اهتمام المصريين القدماء بالتعرف على نوع

(١) بيير مونتيه ، الحياة اليومية فى مصر فى عهد الرعامسة ، ترجمة عزيز مرقس منصور ، مراجعة عبد الحميد الدواخلى ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٧٥ .

(٢) نجيب ميخائيل ابراهيم ، مصر والشرق الأدنى القديم ، الحضارة المصرية ، الجزء الرابع ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٩ .

(٣) Abdel-Halim, N., The Problem of the Royal Placenta in Ancient Egypt, Reprint from the Book of 50th Anniversary of Archaeological Studies in Cairo University, part III, Special Issue from the Journal of Faculty of Archaeology, Cairo, 1978, p. 84.

(٤) نجيب ميخائيل ابراهيم ، المرجع السابق ، ص ٦ .

الجنين (١) ذكراً كان أم أنثى يوحى بإعطاء أهمية خاصة للمرأة المصرية القديمة أثناء مرحلة الحمل .

وما أن يحين موعد الولادة حتى يبدأ نوع آخر من الحرص على تسهيل عملية الولادة مثل تلاوة الأدعية لسلامة الحامل ، واللجوء إلى القابلات المتخصصات والاستعانة بكرسى الولادة (٢) ، بالإضافة إلى استخدام بعض العقاقير في حانة الولادة العسرة . وعندما تم عملية الولادة ، تظهر مشاعر الأسرة نحو نوع المولود . وقد درج المصريون القدماء على الفرح إذا بشروا بالولد بعكس البنت . وربما كان تفضيل الذكر على الأنثى يرجع إلى تكوين المجتمع المصرى القديم ، فالولد يحمل اسم أبيه ويساعده على عمله بالحقول في حياته ، ويتولى دفنه ، ويؤدى له الطقوس الجنزية بعد مماته . وما يشير إلى الرغبة الشديدة في إنجاب الذكور قصة الأمير الموعود (٣) «حدث ذات مرة أن ملكاً لم ينجب ولداً فتضرع للآلهة أن ينجب ابناً... فوضعت (زوجته) ولداً...» . وعلى الرغم من تفضيل الذكر على الأنثى ، يرى بعض العلماء (٤) أن المصريين القدماء لم يكرهوا الأنثى ، بل كانوا على العكس يرحبون بمقدمها ويطلقون عليها من الألقاب ما يشير إلى فرحهم بها مثل نوب كا بمعنى «ذهبية النفس» ، وسات مريت بمعنى

(١) أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار، تاريخ التربية والتعليم في مصر ، العصر الفرعونى، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ١٢٤ .

(٢) Blackman, A.M., „Some Notes on the Story of Sinuhe and Other Egyptian Texts” —(in) JEA, London, 1936, pp. 42—43; Faulkner, R.O., „Brief Communications Kégemni Once Again”, — (in) JEA, London, 1951, p. 114.

(٣) أدواف إرمان وهرمان رانكة ، مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ، ترجمه وراجعه عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ٤١٨ .

(٤) عبد العزيز صالح ، التربية والتعليم في مصر القديمة ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٧ .

«الإبنة الحبيبة». ولقد بلغ من اهتمام المصريين القدماء بالطفل حرصهم على محاولة التعرف على مستقبله والتنبؤ بحظته فكانوا من أجل ذلك يلجأون إلى استشارة مجموعة من المعبودات عرفت باسم (الحتحورات السبع) بغرض التنبؤ بمصير المولود ، بل وبنوع الموت المقدر له . ويستدل من قصة الأمير الموغود على ذلك الاتجاه «... وعندما اجتمعت الإلهات الحتحورات ليقررن لحظة قلن سوف يلتقى حنفته بتمساح أو ثعبان أو كلب ...» .

ومهما كان المستقبل الذى ينتظره ذلك الطفل ، فإن الأمر كان يتطلب تسمية المولود ، حيث لم يكن لدى المصريين القدماء ما نطلق عليه فى وقتنا الحاضر «اسم العائلة» . وقد اختلفت الأسماء التى أطلقتها المصريون من أسماء بسيطة مثل فى Ti أو مركبة على هيئة جملة (١) مثل جد بتاح أيوف عنخ Djed-Ptah-louf-Ankh بمعنى «يقول بتاح أنه سيحيا» . وفى بعض الأحيان كان الإسم يعبر عن أمنية مثل «الحلوة جاءت» ، أو كان يحمل مدلولاً دينياً يعبر عن تبعية الطفل للإله مثل «خادمة رع» أو «بنت حتحور» . وكان على الوالدين أن يقوموا بقيد اسم المولود فى وثائق الدولة الرسمية التى كانوا يطلقون عليها إسم سجلات (دار الحياة) (٢) .

وكان من مظاهر رعاية الطفل فى مصر القديمة ، الاهتمام بمرحلة الرضاعة . فقد أشارت النصوص المصرية القديمة إلى حرص الأم على ارضاع وليدها لفترة كانت تستغرق ثلاثة أعوام . فمن أقوال الحكيم أنى (٣) لولده خونسو حنّب ، وهو ينصحه بالبر بأمه مبيناً أفضالها عليه « .. ضاعف كمية الحنّب التى تقدمها لأملك ... لقد كنت عبثاً ثقيلاً عليها . (ولكنها) ظلت مغلولة بك وأعطتك ثديها فى فمك مدى ثلاث سنوات باستمرار ...» . هذا وقد اختلف

(١) بيير مونتيه ، المرجع السابق ، ص ٧٨ .

Griffith, F., Stories of the High Priests of Memphis, Oxford, 1900, (٢) p. 19.

Wilson, J.A., The instruction of Ani (in) ANET, p. 420. (٣)

العلماء في تفسير امتداد فترة الرضاعة لمدة ثلاث سنوات. فبينما يرى البعض (١) احتمال الشك في تقبل هذه الفترة الطويلة نسبياً على أنها الفترة الطبيعية للرضاعة على أساس أنه كان يصعب على الأم المصرية ارتباطها برضيعها طوال هذه الفترة ، بجانب ما تتحمله من تبعات منزلية وأسرية ، يرى البعض الآخر (٢) أن الحكيم أتى ربما قصد من إظهار طول فترة الرضاعة الإشارة إلى اهتمام الأم بطفلتها طوال هذه الفترة . وفي الطبقات القادرة كانت ظاهرة اتخاذ المراضع واضحة ، كما كانت لهن مكانة خاصة في أسرة الرضيع ظهرت في كثير من النقوش والصور (٣) .

وبانتهاء مرحلة الرضاعة ، تبدأ مرحلة يمكن أن نطلق عليها مرحلة الطفولة المبكرة والتي تمتد عادة حتى دخول المدرسة . ويكون نمو الشخصية فيها عادة سريعاً . ولم يفت المصري القديم أن يهتم بتكوين الطفل في تلك المرحلة بمحاولة استخدام اللعب كوسيلة من وسائل التربية ، لما في ذلك من أثر كبير في تنمية قدرات الأطفال . وقد قدم المصري القديم الكثير من نماذج اللعب للأطفال في هذه المرحلة مثل اللعب المتحركة بالخيوط بعضها في هيئة أقزام راقصة ، أو عرائس مصنوعة من الخشب ، أو الفخار . ولا شك أن تلك اللعب كانت وسيلة للمتعة بجانب كونها تدريجياً للمقدرة على تفهم الأشياء في تلك المرحلة . وعندما يشب الأطفال عن الطوق ، كانوا يدخلون مرحلة اللعب الجماعي مما كان له قيمة تربوية كبيرة سواء من ناحية بناء الجسم أو العقل ، ومما أكسب هؤلاء الأطفال الكثير من المهارات والثقة بالنفس وعودهم التنافس واحترام نظام الجماعة .

وبعدئذ يمر الطفل بمرحلة جديدة عندما يبدأ استعداداه في الذهاب إلى

(١) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٢٣ .

(٢) نجيب ميخائيل ابراهيم ، المرجع السابق ، ص ٧ .

(٣) Petrie, W.F., Tombs of Courtiers, London, 1925, PL. XXII.

المدرسة . ولما كانت المدرسة تعمل في تكامل مع البيت وتكون جزءاً لا يتجزأ من مراحل النمو في حياة الطفل ، وتساعده في تكوين شخصيته جسمياً وعقلياً واجتماعياً ، لذلك حرص المصري القديم على إرسال أبنائه إلى المدرسة . ومن ناحية أخرى ، كانت الظروف الاجتماعية السائدة آنذاك ترى في التعليم السبيل الذي يمهد للدخول في مناصب الدولة . ولهذا شجع الآباء أبنائهم في طلب العلم . وقد أشارت نصوص دواوف (١) بن خيتي وهو ينصح ابنه المسمى ببي عندما أرسله إلى المدرسة بأن «... يضع قلبه وراء الكتب ، وأن يحبها كما يحب أمه ، لأنه ما من شيء يعلو على الكتب...» وكان التلميذ عادة يؤخذ بالشدّة والخزم . حيث تفاوت العقاب ما بين التوبيخ إلى الضرب إلى التذنيب لمن أهمل الدرس ، كما أشارت إلى ذلك نصائح دواوف «... لا تقض يوماً واحداً دون عمل وإلا فيسكون الضرب نصيبك فإن أذن الصغير موضوعه على ظهره وهو يسمع ويطيع عندما يضرب...» .

وإلى جانب الدور الهام الذي كانت تشارك به المدرسة البيت في تنشئة الطفل المصري القديم ، فإن تربية النشء كانت تتطلب في الواقع تعليمه فلسفة الحياة العملية وآداب السلوك والمعاملة . ومن أجل هذا زخر الأدب المصري القديم بالكثير من نصائح الحكماء التي تضمنت اتجاه المصريين إلى تنشئة أبنائهم على أخلاق وصفات فاضلة ومنها الصدق والأمانة والتحدث عن الخبرة والدراية والتأمل ، والبعد عن التثرثرة ، وتحاشي الغضب أثناء الكلام . وتشير نصائح بتاح حوتب (٢) إلى الكثير من تلك الحكم ومنها تحذير الأبناء من غرور العلم «... لا يداخلك الغرور بسبب علمك ولا تتعال

(١) أدولف إرمان وهرمان رانكة ، المرجع السابق ، ص ص ٣٥٣ ، ٣٥٦ .

(٢) Wilson, J.A., Proverbs and Precepts, „The Instruction of the Vizier Ptah-Hotep”, — (in) ANET, pp. 412–414.

لأنك رجل عالم . استشر الجاهل كما تستشير العالم ...» . وفي التمسك بالحق تشير تلك الحكم «... ما أعظم الحق ، فإن قيمته خالدة ، ... انه (الحق) مثل الطريق السوى أمام الضال . ولم يحدث أبداً أن عرف عن عمل السوء أنه أوصل صاحبه سالماً إلى مأمته ..» كما عنيت تلك النصائح كذلك بآداب المائة «... إذا كنت مدعوا إلى مائدة من هو أعظم منك ، فخذ ما يعطيه لك ، ولا تسدد نظرات كثيرة اليه ... غض من طرفك حتى يحييك ، ولا تتكلم حتى يخاطبك . اضحك بعد أن يضحك ، فإن ذلك يدخل السرور على قلبه ...» وعن احترام الإبن لأبيه ، تقول النصائح «... ما أجمل أن يصغى الابن عندما يتكلم والده ا فسيطول عمره من جراء ذلك . إن من يسمع يظل محبوباً من الإله (ولكن) الذى لا يسمع مكروه من الآلهة ...» .

أما تعاليم أبو كاجمى (١) Kagemni لولده فيشير إلى العمل فى صمت والإقلال من الكلام «... دع اسمك يعلو ، وفك صامت ، فسوف تستدعى إلى المراكز العليا ...» .

وبالنسبة لنصائح الملك خيى لابنه مري كارع (٢) فيشير إلى اتباع اللياقة فى الحديث مع الآخرين «... كن لبقاً فى الحديث... لأن اللسان ... (؟) كالسيف (؟) ...» . والحث على عمل الخير «... هدى من روع الباكي ... لا تقتل رجلاً إذا كنت تعرف حميل مزاياه ، كنت تقرأ معه الكتابات (؟) ...» وتتناول نصائح أمنمحات الأول (٣) تحذيراً لابنه سنوسرت الأول

Gardiner, A.H., "The Instruction Addressed to Kagemni and (١) his Brethren", — (in) JEA, Vol. 32, London, 1946, p. 73.

Gardiner, A.H., New Literary Works from Ancient Egypt, pap. (٢) Petersburg 1116A, recto "The Instruction for King Mery-Ka-Re", — (in) JEA, Vol. 1, London, 1914, p. 26.

Wilson, J.A., Egyptian Instructions, "The Instruction of King (٣) Amen Em. Het", — (in) ANET, p. 418.

من يخونون العهد ويقابلون الإحسان بالإساءة» ... لا تثق في أخيك،
ولا تعرف لك صاحباً... (حتى) عندما تنام ، اجعل من نفسك حارساً
على نفسك...» .

أما نصائح أمنموني(١) لولده فكانت نحثه على عدم مصاحبة الأحمق ،
وعدم الاندفاع والتروى قبل الكلام « ... لا تتخذ الرجل الحاد الطبع
لك صاحباً ،

ولا تزره لتحادثه

وامنع لسانك من مقاطعة رئيسك ...» .

وعلى ذلك ففي الإمكان القول بأن أساس تنشئة الطفل كان هو التربية
المنزلية ودور الوالدين الواضح في تشجيع أبنائهم على التعليم وتنشئتهم
على محاسن الأخلاق . وإزاء هذا كان الأبناء يحملون لآبائهم هذا الصنيع
ويحترمونهم ، وليس أدل على ذلك من نصيحة يوجهها أحد كبار الكهنة
حيث يقول «... منذ درجت من حجر أرى ... كنت أدخل وأخرج وأروح
وأغدوا بأمر (أبي) وعلى ضوء من هديه ، لم أخالفه قط ، ولم أهمل واجباً
كلفني به ، ... وكان يثنى على من أجل ذلك (٢) ...»

ويتضح مما سبقت الإشارة إليه أن الطفولة في نظر المصريين القدماء كانت
بلاشك المرحلة الصالحة للتعليم والتلقين إذ ترسم خلالها في ذهنه وأحاسيسه
المبادئ والقيم التي يجب أن يتمسك بها وتلك التي يجب أن يعرض عنها .
وعلى ذلك فيمكن القول بأن الإنسان المصري القديم لم ينس أن يتفهم الدعائم
الأساسية في تنشئة أطفاله وأن يركز على الاهتمام بمراحل الطفولة المبكرة
التي يتكيف فيها الطفل بالبيئة والمجتمع تكيفاً قوياً يستمر أثره طوال حياته .

Griffith, F., „The Teaching of Amenophis the son of Kanakht. (١)
Papyrus B.M. 10474, ” (in) JEA, Vol. XII, London ,1926, p. 208.

(٢) أحمد بدوي ومحمد جمال الدين مختار ، المرجع السابق ، ص ٢٢١ .